مصر

مصر[1] بلد خلقه الله ليكون حرا مستقلا ، عزيزا كريما ، ومتعه الله بحقه فى الحرية والاستقلال ، ونصيبه الأوفى من العزة والكرامة قبل أن يشعر غيره من البلاد بمعانى هذه الكلمات ، بل قبل أن يعرف التاريخ وجود غيره من البلاد ، ولكنه الآن قد فقد حريته واستقلاله ، وأوذى فى عزته وكرامته . وهو يستقبل الآن يوما من هذه الأيام التى فقد فيها الحرية والاستقلال ، والتى غض فيها من عزته وكرامته . وأهله الآن – كما كانوا من قبل – يعرفون معنى الحرية والاستقلال ، ويقدرون قيمة العزة والكرامة ، ويحرصون أشد الحرص على أن يكونوا أحرارا مستقلين ويجدّون أشد الجد فى أن يكونوا أعزة كراما .

مصر بلد كانت له الكلمة فى حياة الأمم والأجيال منذ عشرات القرون قبل أن يعرف غيره من الشعوب معنى كلمة الأمم والأجيال ، بل قبل أن يعرف التاريخ غيره من الشعوب بزمن طويل . ولكنه الآن ليست له كلمة فى حياة أمة ولا شعب ، بل ليست له كلمة فى حياة

---

(١) ١٤ – ٩ – ١٩٣٣

نفسه . إنما الكلمة فى حياته لقوم آخرين أقبلوا من وراء البحر ، ففرضوا عليه قوتهم فرضا ، وأخضعوه لسلطانهم إخضاعا وأخذوا منذ ذلك اليوم يقضون فى أمره ، لا يستشيرونه ولا يسألونه ولا يسألون أنفسهم ولا يسألون غيرهم من الناس أيرضيه قضاؤهم فى أمره أم لا يرضيه ؟

مصر بلد لا تسأل أحدا من أهله عن الحرية والاستقلال إلا أنبأك بأنه يلح فيهما الحاح المظلوم فى الوصول إلى حقه ، ولا تسأل أحدا من أهله عن العزة والكرامة إلا أنبأك بأنه يحرص عليهما كما يحرص الحى على الحياة . ولكنه مع ذلك لا يستمتع بهذا الحق الذى يلح فيه ، ولا يظفر بهذه الحياة التى يحرص عليها لأن قوما جاءوا من وراء البحار فصبوا عليه الحديد والنار ، واضطروه إلى حياة بعيدة كل البعد عن حياة الشعب الحر المستقل وعن حياة الشعب العزيز الكريم .

مصر بلد يعيش أهله عيشتين ، إحداهما شر كلها ، وذل كلها ونكر كلها . وهى عيشة الشعب الذى يتسلط عليه الأجنبى ويقضى فى أمره كما يشاء . والأخرى عيشة هى خير كلها وعز كلها ومجد كلها ، وهى عيشة الشعب الذى أحسّ الضيم فأقسم على رفضه ، وأحسّ الذل فأقسم على نبذه ، وأحسّ الهوان فأقسم على أن يخلص منه مهما يكلفه هذا من الجهود .

مصر هو هذا البلد الذى يعيش أهله عيشة الصراع المتصل العنيف بين الواقع والأمل ، وبين الحياة اليومية والمثل الأعلى ، والذى لا تطلع عليه الشمس إلا أحسّ ذلا يلم به ، وعزا يدفعه إلى رفعه ، والذى

عرف كيف يصبر ولكن فى غير يأس ، وكيف يثبت ولكن فى غير استسلام ، وكيف يطاول ولكن فى غير رضى بالخسف أو استسلام للضيم ، والذى اتخذ لنفسه فى الحياة مثلا أعلى لن يطمئن للحياة قبل أن يصل إليه ، وهو الحرية الكاملة والاستقلال التام . والذى أخذ يجدّ فى سبيل المثل الأعلى رغم ما يبث فى طريقه من العقبات ، وما يصب عليه من ألوان الشر وما يهيأ له من ألوان المكر والكيد فلم يمنعه شيء من ذلك أن يمضى فى طريقه ثابت القدم ، ماضى العزم ، صادق النية ، مؤثرا للموت على أن يقف فى هذه الطريق .

هذه هى مصر التى تذكر اليوم فى حزن يبعث الأمل ويجدد النشاط ويثير الحفيظة ويذكر بالمجد القديم ، ويقرب من المثل الأعلى . تذكر ذلك اليوم المشئوم الذى دخل فيه الجيش الإنجليزى مدينة القاهرة منذ أكثر من نصف القرن .

لم تنس مصر ذلك اليوم منذ كان ، ولن تنسى مصر ذلك اليوم حتى بعد أن يخرج جيش الإنجليز من القاهرة . هو الآن تذكار ذلة فرضها الأجنبى ظلما وعدوانا ، ولكنه سيكون من غير شك ولا ريب تذكار عزة يفرضها المصريون على الزمان فرضا لأنهم يؤمنون بحقهم ويجاهدون ولن يكفوا عن جهادهم ، ولن يفتروا فيه حتى يبلغوا هذا الحق ، وحتى يجبروا الإنجليز على أن يعودوا أدراجهم ويجلوا عن بلادهم معترفين لهم من الحق بما كانوا ينكرون .

إن المصريين اليوم أعرف بالحق وأحرص عليه من أن يعرضوا عنه أو يقصروا فى ذاته وإن الشباب المصرى اليوم أذكى قلبا ، وأرق خلقا

من أن يخدع نفسه بالألفاظ أو يعلل نفسه بالأمانى ، فلن يؤمن الشباب المصرى بأنه حر حقا والجيش الإنجليزى مقيم فى أرض مصر ، ولن يؤمن الشباب المصرى بأنه مستقل حقا والسلطان الإنجليزى مبسوط على أرض مصر ، ولن يصدق الشباب المصرى أنه عزيز كريم حقا وأمور مصر كلها صغيرها وكبيرها تصرف على غير ما تريد مصر .

إن الشباب المصرى الآن أذكى قلبا ، وأعظم تقديرا للحق والواجب من أن يطمئن إلى غير ما يطمئن إليه الشباب فى كل أمة حرة مستقلة حقا . ليس الشباب المصرى غافلا ولا لاهيا ولكنه فطن يقظ ، يعلم حق العلم ما يراد منه ، ويعلم حق العلم ما يريد هو ، ويعلم حق العلم كيف يأبى على الغاصبين والمستعمرين غصبهم واستعمارهم وكيف يقدم حياته وجهوده ثمنا يسيرا هينا لما يريد من تحقيق آماله فى العزة والاستقلال .

إن الشباب المصرى الآن يعرف تاريخ مصر ، ويعلم حق العلم بما اختلف على بلده من الخطوب ، وما ألم به من المحن ، ويعلم حق العلم كيف يستفيد من درس هذا التاريخ ، كيف يستشعر العزة والإباء حين يقرأ من صحف التاريخ المصرى تلك الصور التى تصور مجد مصر ورفعتها فى العصور القديمة والعصور الوسطى . ويغرف كيف يستشعر الصبر والثبات وإباء الضيم ، والجد فى سبيل المجد حين يقرأ من تاريخ مصر تلك الصحف التى تصور ما أصاب مصر من ضروب البغى والعدوان . وهو حين يقرأ صحف التاريخ المصرى على

اختلاف ما فيها من الصور المشرقة والقاتمة يعرف كيف يحب مصر سعيدة وشقية ، وكيف يكبر مصر عزيزة ومستقلة . وكيف يقدم حياته فداء لهذا البلد الذى ذاق أحلى ما ذاقته الشعوب من حياة السعادة والعز والنعيم فلم يفسده أشر ولا بطر ، وتجرع أمر ما تجرعته الشعوب من كئوس الظلم والبغى والعدوان ، فلم يفسده استسلام ولا استكانة ، ولا خنوع ولا خضوع .

من زعم أن الشباب المصرى يلهيه عن واجبه الوطنى شيء من الأشياء مهما يكن فهو خادع أو مخدوع ؟ ومن زعم أن الشباب المصرى كان محتاجا إلى هذا اليوم الذى يذكّره باحتلال الإنجليز للقاهرة ، أو بذلك اليوم الذى يذكره بضرب الإنجليز للاسكندرية ، فهو خادع أو مخدوع ؟ فإن فى كل قلب مصرى صورتين تختصمان دائما ، وتتصارعان دائما ، إحداهما تمثل الاعتداء الأجنبى والأخرى تمثل العزة القومية . وقد كان كل يوم من أيام المصريين ، وسيظل كل يوم من أيام المصريين تذكارا قويا محزنا محييا للأمل ، يعيد على المصرى ذكرى تلك الأيام السود التى وطىء فيها الأجنبى أرض الوطن الخالد العزيز .

لا تسل المصرى شابا كان أو شيخا ، كبيرا كان أو صغيرا ، غنيا أو فقيرا عن مصر هذه التى يحبها وينهض للذود عنها ، ويبذل حياته لاستنقاذها أعربية هى أم فرعونية ؟ فذلك شيء لا يفكر فيه المصريون إلا حين يريدون أن يتحدثوا فى العلم ، وفيما يشبه العلم من الحديث . فأما مصر التى تملأ قلوب المصريين وتدفعهم إلى الأمل

والعمل دفعا فهى فوق الفروض جميعا ، وهى فوق الاحتمالات جميعا ، وهى فوق علم العلماء ، وبحث الباحثين وفلسفة الفلاسفة . هى هذا الوطن الخالد الثابت السعيد الذى تنبتنا أرضه وتظلنا سماؤه ، ويسقينا ماؤه ، والذى يخرج لنا كل ما تشتمل عليه الحياة من أنواع اللذة التى تحبب العيش وأنواع الألم التى تكون الأخلاق .

مصر هى هذا الوطن الخالد الثابت السعيد الذى تختلف عليه الأزمنة وما تحمل من الخطوب والصروف فلا يتغير ولا يمضى مع الزمن ، ولكنه ثابت مقيم ، مبتسم دائما ، تشرق شمسه الحلوة الهادئة كل يوم فتبعث الحركة والحياة فى كل شىء ، وفى كل إنسان ، ويجرى نيله القوى الرزين فيبعث الحركة والحياة فى كل شىء وفى كل إنسان .

مصر هذه هى التى عاش لها آباؤنا مهما تكن أجناسهم الأولى فلم يعدلوا بها بلدا ، ولم يضنوا عليها بجهد ، ولم يبخلوا عليها بالحياة . مصر هذه هى التى نعيش لها نحن مهما تكن أجناسنا الأولى كما عاش لها آباؤنا ، وكما سيعيش لها أبناؤنا لا نعدل بها بلدا مهما يكن ، ولا نضن بجهد مهما يكن ولا نبخل عليها بالحياة

مصر هذه هى التى نراها فى أنفسنا اليوم مستذلة للسلطان الأجنبى ونريد أن نراها فى أنفسنا غدا أعز وأمنع وأكرم من أن يطمع فيها الطامعون .